مناهج البحث التاريخي وأدواته

في حوار مع الدكتور سهيل زكار*

الحياة الطيبة: أولاً وقبل كل شيء نشكركم على تكرمكم بإفساح المجال لنا لعقد هذا الحوار معكم ونود أن نركز حوارنا حول مناهج البحث التاريخي، على ضوء ما يقال من كون التاريخ مجموعة من الأحداث التي يعيد المؤرخ إحيائها من جديد. وأخطر ما في إعادة الإحياء هذه أن هذه الأحداث مشوبة في كثير من الأحيان بعواطف المؤرخ وخلفياته المسبقة، فربما نجد حدثاً واحداً يقرأه كل من زاويته الخاصة به. وسؤالنا هو إلى أي مدى يمكن تقنين مجموعة من القواعد والضوابط المنهجية التي تحول، أو على الأقل، تخفف من غلواء هذه الخلفيات القبلية من عاطفية وغيرها؟

الدكتور زكار: تختلف الآراء حول التاريخ وهل هو علم، أم معرفة، أم فن؟ من الناس من قال: إن التاريخ علم، ومنهم من أنكر كونه علماً وقال هو نوع من المعرفة. ومنهم من قال: إن التاريخ لا يمثل علماً ولا معرفة، بل هو فن من فنون الكتابة وعرض الماضي بلغة علمية أحياناً.

ربما يكون لهذه المواقف من تبناها وربما يوجد غيرها. وأنا أعتقد بأن التاريخ علم، إلا أنه من صنف العلوم الإنسانية، وإذا كان العلم يتميز بهدفه ومحتواه فالتاريخ أيضاً لابد أن يتمتع بهاتين الخاصيتين فهدفه هو الوصول إلى حقيقة ما حصل في الماضي والمحمول أو المحتوى هو الحدث التاريخي نفسه. نعم يقال: إن

* باحث متخصص في التاريخ وأستاذ جامعي - دمشق.

التاريخ هو خبر ورؤية. والمهم هو مسألة الرؤية، ومعالجة قضيتها؛ فالرؤية هي التي تختلف من شخص لآخر، فهي اجتهاد يحتاج إلى قدرات خاصة وأفق واسع.

وفي القرن الماضي والقرن التاسع عشر شهدت أوروبا ولادة عدد كبير من مدارس التأويل، وقد استوردنا نحن في العالم العربي هذه المدارس، واجتهدنا في التاريخ على ضوئها. ومن أهم هذه المدارس: المدرسة الاجتماعية والمدرسة الغريزية. وأشير إلى كتاب «قصة الحضارة» لـ«**ويل ديورانت**» الذي نال شهرة في العالم العربي لم ينلها في الغرب نفسه؛ حيث نلاحظ اهتمامه بالغرائز وشرح مدى تأثيرها في التاريخ ألا يمكن القول باستيحائه ذلك من مدرسة التحليل النفسي **لفرويد**؟ وكذلك روايات الهلال التاريخية في العالم العربي ألا يمكن وضعها ضمن نطاق هذه الدائرة؟

ولكن المدرسة التي كان لها أعظم الأثر على الدنيا كلها، وعلى العالم العربي تحديداً هي المادية التاريخية، وذلك أننا بحكم علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي حاولنا، أو كثيرون منا على الأقل، دراسة التاريخ الإسلامي على ضوء الفكر الماركسي، وإبراز دور العامل الاقتصادي، والتخفيف من دور العامل الديني لتفسير أحداث التاريخ. ولاشك أن كثيراً من هذه الكتابات تستحق الوقوف عندها والالتفات إليها، لكن يشعر الباحث المدقق بوجود بعض التشوهات المنهجية فيها؛ حيث إنها كانت تمارس نوعاً من القسر المنهجي لتطويع التاريخ لهذه المدرسة. وفي الآونة الأخيرة انبرى عدد من المفكرين حتى في داخل ما كان يعرف بالاتحاد السوفياتي نفسه إلى إعادة النظر في تلك النتاجات ومحاولة إصلاح ما فيها من قسر وتطويع عقائدي للخبر التاريخي لمصلحة الرؤية الماركسية. وفي مقابل الاتجاه الماركسي نجد أن المتأثرين بالنظام الرأسمالي يمارسون شيئاً شبيهاً بهذا التطويع ولكن من خلفية إعطاء الدور الأصيل للفرد.

ولتظهير الصورة بشكل أكبر أذكر مثالاً من العراق، فإنه بعد استلام النظام الأخير للسلطة فيه ومناداة الدولة بالفكر الاشتراكي، صدرت أبحاث ودراسات تبدو في ثناياها هذه الظلال، مثلاً، يمكنك أن تقرأ بعض الأبحاث التي كتبت حول ثورة الزنج تفسر حركتهم على أساس العامل الاقتصادي. ولكن بعد حرب الخليج الأولى وبعد أن «**استيقظ الحس الديني فجأة**»! عند **صدام حسين** وُجِدَ من يبحث له عن نسبه ليجد أن النبي(ص) هو جده السابع والأربعين، في هذا الجو صارت تفسر ثورة الزنج نفسها على أنها خيانة من العبيد لأولياء نعمتهم، وتمرداً على الأشراف والسادة.

وهذا يطرح إشكالية مهمة حول كتابة تاريخ الأمة فمن؟ وكيف ينبغي أن يكتب هذا التاريخ؟ حيث إنه بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وظهور الولايات المتحدة الأميركية كقوة وحيدة طاغية. والترويج لما يسمى بصراع الحضارات وحصر هذا الصراع بالصراع بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية. أمام هذه الصورة الجديدة بدأت تتغير النظرة المنهجية إلى التاريخ. ولاشك في وجود محاولات غربية جديدة تنطلق من الرؤى الجديدة التي يروج لها في الغرب كالعولمة وغيرها وما أخشاه هو أن نعمل على تقليدها واستنساخها.

وأنا كفرد، وإن كنت قد تخرجت من واحد من معاهد الاستشراق في لندن، وقد أنجزت رسالة الدكتوراة بإشراف واحد من أكبر المستشرقين، ولكنني مع ذلك لم أتخل عن هويتي والتزامي بتاريخ أمتي ولم أحاول استنساخ منهج أو مدرسة غربية لتطويع التاريخ الإسلامي لمصلحتها، بل حرصت على البحث عن منهج مناسب لدراسة تاريخ أمتي، وهذا الأمر نابع من إيماني بأن التاريخ علم، ومن إيماني أيضاً بأن الإسلام يتعامل مع الإنسان بشكل متوازن؛ حيث إنه يلاحِظ في تشريعاته كلاً من الجانب الغريزي، والجانب التعبدي في الإنسان.

أمام هذا الحال قلت: إن الإنسان الكامل يشكل نسبة مائة في المائة، والإنسان هو بطل الحدث التاريخي، ولو رمزنا إلى الحدث التاريخي برقم مائة على مائة أيضاً فإننا سوف نلاحظ أن كل حدث تاريخي سوف تتدخل في تحققه مجموعة من العوامل التي تشكل الإنسان الكامل المشار إليه آنفاً. وهكذا سوف يكون وراء أي حدث تاريخي عوامل غريزية، واجتماعية، واقتصادية ودينية وهكذا. والنسبة التي تعطى لكل واحد من هذه العوامل؛ تختلف باختلاف الأحداث واختلاف الأزمنة.

فإذا أردت أن أبحث في ظاهرة الفتوحات الإسلامية، فإنني في المرحلة الأولى منها ربما أعطي العامل الديني نسبة سبعين في المائة ولكن بعد خمسين سنة من بداية حركة الفتوحات، سوف تنخفض قيمة العامل الديني إلى ثلاثين في المائة مثلاً. وفي البداية تصورت أنه يمكن الاستفادة من الحاسوب لتوزيع هذه النسب، إلا أنه بدا لي بعد ذلك أن الحاسوب آلة صماء والتاريخ علم إنساني يحتاج إلى مشاعر الإنسان وأحاسيسه.

وفكرت في المنهج الأسلم لتحقيب التاريخ الإسلامي فوجدت أن الأفضل أن لا أعتمد كذلك التقسيم على أساس حكم الأسر والملوك، فمثلاً جرت العادة على تناول خلافة **أبي بكر** كيف وصل إلى الخلافة ثم بعد ذلك حروب الردة وحركة الفتوحات وهكذا إلى وفاته، ثم **عمر بن الخطاب**...

ولكنني وجدت أن اعتماد هذا الأسلوب يلغي دور الجماهير وعامة الناس، فالحدث التاريخي لا يصنعه الحاكم وحده. وما فعلته للخلاص من هذا المأزق هو أنني أحاول أن آخذ العصر الراشدي ككتلة واحدة مقسمة إلى أجزاء تبيِّن التطور السياسي في المجتمع الإسلامي. وآخذ ككتلة واحدة، أيضاً، ما أسميه بالحروب الخارجية وكذلك الحروب الداخلية، وكذلك التطور الإداري والتطور الاجتماعي إلى غير ذلك. فأنهي دراسة كل كتلة وبالنتيجة سأصل إلى محصلة وفلسفة معينة. فأكون قد جعلت الفلسفة تأتي كنتيجة من نتائج البحث، ولم أفعل ما فعلته المدرسة الماركسية أو غيرها؛ حيث إنها وضعت النظرية من ثم قامت بالتطبيق.

هذا عمل علمي أكثر سلامة لكن في الوقت نفسه، سأحاول أن لا أغفل الرجالات والقادة، فإذا درست العصر الراشدي، فسأفرد في نهاية الكتاب صفحة على أكبر تقدير لكل رجل من رجالات ذلك العصر، من خليفة إلى قائد عسكري إلى رجل إداري. هذا يخيَّل لي أنه أكثر سلامة، وأكثر توازناً، وأيضاً يخفف من بعض المناظر المشوَّهة في التاريخ الإسلامي. مثلاً **يزيد بن معاوية** استلم السلطة، فعل ما فعله في كربلاء، وقام باستباحة المدينة، واستباحة مكة، أي كان من الممكن أن تؤدي أعمال **يزيد** إلى انهيار كامل، ومع ذلك بقي الإسلام، كيف بقي؟ بقي من خلال الجماهير والسلطة. فالإسلام هو الذي يوجد السلطة، ويحاسبها ويقومها أو يقبلها. وعلى العكس من ذلك تواريخ الأمم الأخرى قبل الإسلام، بل المعاصرة له، هي تواريخ سلطات وليس تواريخ أديان،مثلاً، تاريخ أوروبا الغربية في القرون الوسطى هو تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة وصراعها مع الباباوات، ولا يوجد تاريخ اسمه تاريخ أوروبا المسيحية، بينما منذ قيام الإسلام صار عندنا تاريخ اسمه تاريخ الإسلام والمسلمين. وهذه المسألة لا وجود لها في تاريخ أمة أخرى، وسوف أحاول الشروع في تطبيق هذه الفكرة، من خلال عدد من الدراسات، وقد تتطور خلال الممارسة.

الحياة الطيبة: يواجه المؤرخون خيارات عدة في تحقيب فترات التاريخ الإسلامي والأساس الذي ينبغي اعتماده في هذا المجال. وقد انعكس هذا الأمر في الدراسات الأدبية أيضاً، فقد اعتمد المؤرخون غالبا الأساس السياسي لتقسيم الأزمنة التاريخية وكذلك الأدب، فما هو الخيار الذي ترون أنه الأنسب لهذا العمل؟

الدكتور زكار: نعم، قضية التحقيب من أهم قضايانا في التاريخ الإسلامي. الأوروبيون

حاولوا، وبعض العرب حاولوا، وبعضهم انطلق من منطلق ديني، وبعضهم من منطلق تقليدي أوروبي أو قومي، لكن أنا فكرت أن الإسلام منذ الوقت الذي قامت فيه مؤسسة الخلافة، امتلك شرعية ومرجعية، وهذه الشرعية أحياناً كانت في السلطة وأحياناً كانت في محل آخر، ولكن مؤسسة الخلافة إجمالاً كانت هي الممثل الفعلي لهذه الشرعية، الأمر الذي ولد عمليا يوم السقيفة وقضي عليها من قبل **أتاتورك**، بعدما استلم السلطة في مطلع الأربعينيات من القرن الماضي. أنا أريد تأسيس التحقيب التاريخي الإسلامي على أساس الشرعية. وعلى هذا الأساس، يوجد العصر النبوي، والعصر الراشدي، الأموي، العباسي، العباسي الأول، والعباسي الثاني في مصر، والعثماني.

ولا أريد أن أنفي وجود دول أخرى خارج إطار الشرعية، بل وجدت دول مستقلة أو شبه مستقلة، لكن على الرغم من استقلالها بقيت متصلة بالشرعية، وخارج الشرعية أيضاً يوجد دول استقلت وأعلنت عدم اعترافها بالشرعية، ولكنها اندثرت، مثلاً الخلافة الأموية، في الأندلس لم تدم خمسين سنة، هي حقبة من أيام عبد الرحمن الناصر والحاكم الثاني من ثم جاء **المنصور بن أبي عامر**، وبدأ الاستبداد **العامري** ثم ملوك الطوائف، وأيضاً من جانب آخر وجدت الخلافة الفاطمية، وهذه الخلافة لها وضع خاص، وأيضاً لم يكتب لها الاعتراف الكامل، ولم يكتب لها الديمومة، مثل مؤسسة الخلافة التي بدأت في السقيفة وانتهت مع سقوط السلطنة العثمانية. وهذا قابل للمناقشة، ولكنه منطلق، فنحن نحاول أن نفتح باباً للنقاش، وقد لا يقبل الكثير من الناس بذلك، وقد يعدلوا، أو قد يتبنوه، إلى غير ذلك.

الحياة الطيبة: يرتبط التاريخ بالوثيقة والمصدر ارتباطا تاماً، إلى أي مدى يجد المؤرخ نفسه أسير المصدر في كثير من الأحيان؟ وبخاصة إذا لاحظنا أن التاريخ كتب بواسطة الإنسان الذي لا يستطيع أن يتجاوز ذاته وعواطفه في تدوينه لأحداث التاريخ، وبالتالي فمن المنطقي جداً أن يعكس في كتابته أحلامه وعواطفه أو على الأقل يمارس نوعا من الانتقاء في تدوينه، إن كان أمينا. وهذا ما نشاهده في الإعلام المعاصر حيث يصرح المهتمون بالإعلام أن الموضوعية شعار لم يبصر النور في يوم من الأيام.

الدكتور زكار: ينبغي إعادة النظر بكلمة مصدر ووثيقة، أولاً كلنا نقرُّ بأنَّ المصدر ليس هو المكتوب فقط إنما الآثار، النقود، الأوابد، ومختلف الأشياء، تمثل وثائق تخدم أغراض الباحث في التاريخ، وإن كنا في مجال تاريخ العرب والإسلام قد اهتممنا بالمدونات كثيراً.

وكما قال **القفطي**: إنه إذا أراد أحد من الناس أن يكتب تاريخ الإسلام فعليه بكتاب **محمد بن جرير الطبري**، وبعده ما كتبه **ابن الأثير**، وبعد **ابن الأثير أبي الفداء**، وبعده **ابن الوردي**. لكن ورغم تقديري العظيم **للطبري**، هل هو المصدر؟ هنا نواجه مشكلة خلال البحث في التاريخ الإسلامي. وهي أننا نلاحظ منذ أحداث الفتنة الكبرى أو مقدمات الفتنة الكبرى، بدأنا نجد المجتمع الإسلامي سلطوياً وشعبياً ينقسم إلى قسمين، السلطات والرعية، وأنا لا أريد أن أستخدم كلمة رعيّة. إنما أريد أن أستخدم مكانها كلمة الدولة.

من الذي كتب التاريخ؟ من الذي صنع الفقه؟ من الذي عين القضاة؟ من الذي بنى المساجد؟ من الذي نشر الإسلام؟ لا علاقة للسلطة بذلك. في الكثير من الأحيان، كانت السلطة الأموية تقف ضد انتشار الإسلام لأسباب معينة، حتى أنه عندما أعطى **عمر بن عبد العزيز** أوامره المالية، قيل له ينكسر الخراج، فقال مقولته الشهيرة: إن الله تعالى أرسل **محمداً** هادياً ولم يرسله جابياً.

إذن، لابد أن نعيد النظر في كلمة مصدر، ودرجات المصادر، عندما يتعمق الإنسان يجد أن هناك ظاهرة لدى المؤرخ العربي، والتاريخ العربي، حتى أنها لم توجد لدى بعض الشعوب الإسلامية في العصور المتأخرة، وهي أن الدولة أو ما سماه السلطان باسم الرعية، ظهر عند العرب ما يسمى بكتب التراجم، وكتب الطبقات، التي أرَّخت لجمهور الشعب. فمثلاً أقرأ كتاباً كبيراً **لابن عساكر**، فأجد فيه من رجال السلطة. نسبة لا تتجاوز الثلاثة إلى المائة، والباقي كلهم شعراء، محدثون، علماء، وغيرهم. طبعاً ينبغي أن أضيف على كتب التراجم والطبقات كتب الملاحم الشعبية، فالجماهير حاولت أن تؤرِّخ ما حصل في ماضيها لنفسها، يعني أنا عندي صورة المعارك بين المسلمين والبيزنطيين **فالطبري** و**خليفة بن الخياط**، و**الدينوري** كلهم قد سجلوا بعض الأخبار. ولكن لماذا أهمل «ذات الهمة» وهي ملحمة كتبها جماهير الناس؛ ليؤرخوا بها من وجهة نظرهم الملحمية لحدث الصراع مع البيزنطيين؟ لا يمكن إغفال دور الجماهير ورأي الجماهير بما حدث. فأنا الآن عندما أريد التعامل مع ما حدث في كربلاء، وآثارها عبر العصور، فعلي أن أرجع إلى الملاحم وهذا التراكم الملحمي، يمثل إجماع أمة. ولا يهمني بالدرجة الأولى إلا الأمة؛ لأن الأمة هي التي صنعت التاريخ، وليس الأفراد، مع اعترافي بعظمة، أبو جعفر المنصور، مثلاً، لكنه ليس وحيداً في صناعة التاريخ الإسلامي، فأحاول أن أصور للناس كيف قام رجال مجهولون من هذه الأمة صنعو الأمة تاريخها.

الحياة الطيبة: هذه الملاحم إلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يطمئن أنها ليست وليدة عاطفة، فأنا أعرف الطبري وأستطيع أن أعرف درجة وثاقته، إما أن اعتبره ثقة وأمينا على نقل التاريخ، وإما أن لا أثق به فلا أعتمد روايته. ولكن كيف أستطيع الاستناد إلى ملحمة لا يعرف لها كاتب بل ربما لا يكون لها كاتب واحد وإنما تراكمت عبر سنوات؟

الدكتور زكار: هذا المنهج في الاعتماد على التوثيق أقره المحدثون، واعتمدوه في نقلهم للأخبار. فوجَّهوا جهدهم نحو الإسناد وقليلاً نحو المتن. ولكن من الذي يقول: إن وجهة النظر التي دوَّنها الطبري لخبر من الأخبار، تمثل حقيقة ما حصل؟ فربما علي أن أضع **الطبري**، وكتب التراجم، والملاحم، وغيرها من الوثائق لأقارن بينها وأكتشف الحدث التاريخي من مجموعها. توجد أمم كثيرة حاولت أن تؤرخ لماضيها من خلال الأساطير، وبخاصة أولئك الذين لا يملكون مدوّنات موثقة.

فهذه المجموعات المصدرية يجب التعامل معها جميعاً، وأحاول الخروج منها بالصورة التي أراها متوازنة منطقياً وعلمياً. وفي الوقت نفسه علي أن أشير إلى أن الرأي الملحمي الشعبي بما حدث هو كذا وكذا، فأنا لا أريد أن أؤرخ للمعركة فحسب، وإنما للتيار الشعبي. والموقف الشعبي، لا يمكن التأريخ له إلا من خلال الملحمة. **فالطبري** يكتب لي وقائع كربلاء، كفاجعة وجريمة ويحاول نقل الوقائع لحظة بلحظة، لكن كيف تتعايش الناس مع هذه القضية؟ ماذا أثرت في وجدانهم؟ هذه أمور لا ينقلها **الطبري** بل تنقلها الملاحم. وهذا مهم جداً، فلو لم تترك أثرا مهما في وجدان الناس لما تعلموا في العصر الحديث أن الطريق للقتال لرفع الظلم، هو طريق **الإمام الحسين**(ع).

فأنا لا يحق لي تجاوز هذا الجانب الجماهيري، بحجة تدوينه كظاهرة مجردة من خلال ما نقله الثقاة في كتبهم، بل الصحيح هو كتابة التاريخ كوقائع، وكذلك تبيين أثرها في وجدان الناس. ومع ذلك أقول إن هذا المنهج ما زال في بداية الطريق، وهو قابل للتطوير من خلال إسهامات الآخرين فيه قبولاً ورفضاً.

وهنا مشكلة أخرى هي مشكلة التوثيق؛ حيث نلاحظ أن المتن يأخذ ثلث الصفحة أو نصفها والباقي إما شروح أو متن آخر. وهنا أقول: «**ما جعل الله للمرء من قلبين في جسد واحد**»، لا يستطيع إنسان أن يقرأ متناً في أعلى الصفحة ومتنا آخر في أسفلها. فالإنسان ينسجم عندما يقرأ متناً واحداً؛ لذلك لجأ بعضهم إلى كتابة الحواشي، في نهاية الكتاب أو نهاية الفصل. وأنا برأيي أن هذه الطريقة يمكن تطويرها، والاستفادة من آثارها

الاقتصادية. فأنا بإمكاني أن أكتب بدلاً من خمسمائة صفحة، ثلاثمائة صفحة وتكون التكلفة أقل وذلك يكون على الشكل التالي: أضرب مثلاً العصر الراشدي، فبحكم الصنعة والممارسة أعرف أن مصادر العصر الراشدي هي كذا وكذا. والآن عن طريق الإنترنت تستطيع أن تعرف ما الذي كُتِب عن الحروب الصليبية، مثلاً، حيث تقدم لك لائحة كبيرة عن الكتب في هذا الموضوع، فأفترض أنني رتبت مصادر العصر الراشدي فأعطي رقماً أو رمزاً لكل مصدر، وأرمز أيضاً للمجلد، وخلال عملية التوثيق أضع بين حاصرتين مع رقم المصدر ورقم المجلد، دون أن أشغل عقل القارئ. فإن أحب القارئ أن يتأكد ويتوسع، يستطيع الاستفادة من الرموز للرجوع إلى المصادر والمراجع التي اعتمدها الكاتب. هذا ومن الواضح أن قراء التاريخ وكتبه ليسوا جميعاً على حد واحد من ناحية الفكر والثقافة والاهتمام، فمنهم من يقرأ التاريخ للتسلية ومنهم لاكتساب المعلومة، ومنهم من يقرأه بوصفه محققاً وباحثاً، والتوثيق ينفع الأخير وحده.

الحياة الطيبة: هنا، وضمن الحديث عن المنهجيات إلى أي مدى تخدم منهجيات الفقهاء المؤرخ؟ وهل يمكن اعتبار علم الحديث وعلم الفقه علماً تاريخياً تنعكس مضامينه وأدواته المنهجية على عمل المؤرخ؟

الدكتور زكار: بعض المحدثين أساتذة كبار في النقد، وأي إنسان يريد أن يتعلم نقد التاريخ، الداخلي والخارجي، لا يستغني عن مناهج المحدثين، مع شيء من الاختلاف في التشدد، ولكن غلب على أهل الحديث الاهتمام بالطريق إلى الرواية دون الالتفات إلى المضمون وفقه الحديث. أنا لاحظت أن الاجتهاد واستخدام العقل عند فقهاء الشيعة أوسع من القيود الضيقة جداً التي فرضها الكثيرون من المحدثين السنة على أنفسهم، منذ استيلاء السلاجقة على السلطة في العصر المملوكي. وعندما نقرأ حوليات العصر المملوكي نجد أن كثيراً من الفقهاء حاولوا أن يحركوا عقلهم قليلاً، فتعرضوا للمحاكمة، وحُكِم عليهم بالردة، وبعضهم أعدم، أو تمت استتابته. ففقهاء الشيعة تعلموا المنطق الأرسطي واهتموا به أكثر من فقهاء السنة. حتى أنك قد تجد بين فقهاء السنة من يحاول تحريم استخدام المنطق. هذا ولكن هناك استثناءات واضحة بين محدثي السنة وفقهائهم. **ابن كثير**، مثلا، محدِّث وإمام في الحديث، وحافظ، وفقيه كبير، حظه أنه درس الحديث على **الحافظ المزي** صاحب تهذيب الكمال وعلى غيره من الحفاظ الكبار، لكنه في الوقت نفسه تعلم من **ابن تيمية وابن قيم الجوزية**. لم يقلدهم ولكنه تعلم استخدام العقل والمنطق؛ أي جمع بين مناهج المحدثين

والفقهاء، فجاء بأمور على درجة عالية من الاعتدال. إذن هو إمام في الحديث والنقد التاريخي ولكنه لم يُنْصَف في هذا الباب. ولو أنني أجد طالباً نجيباً، لكلفته أن يعمل رسالة دكتوراة عن منهج ابن كثير في البحث التاريخي، وأن يقارن منهجه ببعض مناهج العلماء الآخرين المعاصرين.

أقول بكل صراحة وبتواضع إن كل من قرأت له من هؤلاء المحدثين والمؤرخين كان أستاذاً لي، **خليفة بن خياط** أستاذي، وكذلك عندما تعاملت مع «تهذيب الكمال» كان **المزي** من أساتذتي الأجلاء في النقد. وقبلهما عندما تعاملت مع كتب أخرى لا سيّما: «الكامل في الضعفاء»، **لابن عدي** الذي هو من كبار المحدثين والمؤرخين، وعندما حققت «أنساب الأشراف» للبلاذري استفدت منه كثيراً لاهتمامه بالجانب الاجتماعي والاقتصادي في صنع الحدث التاريخي.

والآن عندما أتعامل مع **ابن كثير** وما كتب أشعر بالأمر عينه. وكذلك عندما أقرأ بعض الكتابات الغربية. فأنا من خلال ثمانين مجلداً عن الحروب الصليبية أصبح عندي أكثر من مائة مصدر غربي لمؤرخين ورجال لاهوت. ولا أستطيع أن أنكر أني تأثرت بالكثير من الجوانب من طروحات هؤلاء الكتاب وطرائق بحثهم. وأنا أؤمن بالمثاقفة لكن كما قلت: أحاول من خلال هذا الكم الذي تجمع أن أخدم هويتي وأصالتي الإسلامية والعربية وأصدِّر ما استورده، وإذا استوردت، فلا لأقلد وإنما لأتعامل وأنظر. وربما أقبل أو أرد أو أعدِّل، ويبقى كما قيل: أهل مكة أدرى بشعابها، فنحن أدرى بتاريخنا وأدرى بقضايانا.

الحياة الطيبة: بالمقارنة بين الغربيين وبين العرب والمسلمين عموما، هل تمكن المفاصلة بينهما بالحديث عن تاريخ ومؤرخين غربيين لهم مناهجهم وأدواتهم البحثية، وآخرين مسلمين لهم طرائقهم الخاصة المختلفة؟ وهذا يطرح سؤالا أشمل وهو: هل للعلم هوية خاصة تختلف من قوم لآخرين؟ وإذا كان كذلك، فما هي أبرز وجوه الاختلاف وأبرز وجوه الشبه بينها؟

الكدتور زكار: في العصور الوسطى، عرفت أوروبا عدداً من المؤرخين الكبار. وبالمقابل لدينا نحن عدد من المؤرخين ليس بالقليل، وآخذ **متى باريس** الذي هو أكبر مؤرخ عرفته أوروبا وبالتحديد إنكلترا من سنة ١٢٣٥ إلى ١٢٧٣، وهو مؤرخ مذهل وعظيم، لكن عندما أريد مقارنته ببعض المؤرخين العرب الذين عاصروه مثلاً **أبو شامة** في الروضتين، أجد أن **أبا شامة** أرقى منه في التوثيق وطريقة عرض المعلومات. ولكن عندما نصل إلى عصور ما بعد النهضة، العصور الحديثة نجد الحال مختلفا تماماً، ونقرأ قصة أخرى.

الحقيقة هي أن الغربيين تفوقوا في معالجة تاريخهم. وكثير منهم عندما عالجوا تاريخهم، عالجوه معالجة علمية، وحققوا نتائج مهمة. ولكن عندما حاول رجال اللاهوت والمستشرقين معالجة تاريخنا، ابتعدت العدالة، وانتفى، من بين صفوفهم، الإنصاف، ولم يبق إلا القليل منهم ممن لم تحركه البغضاء، على تفاوت ما بين شخص وآخر. إنما مع هذا مازلت أقرأ لرجال الاستشراق وأقرأ المعالجات الأوروبية للتاريخ الأوروبي، سواء الوسيط أو القديم. اليوم بالذات كنت أقرأ تاريخ أوروبا في العصور الوسطى لبنتر. ورأيت أنه بمعالجته للموضوعات التي يقاربها من أعظم المؤرخين ولاسيما في تأريخه لبداية ظهور المسيحية وتنظيماتها اللاهوتية والكنيسة. فأنا هنا أتعلم من مناهجه، كما هو تعلم من مناهج غيره، لكنني أقرأ للمستشرقين بحذر، وأخشى الانزلاق؛ ومع ذلك لا أستطيع أن أنكر دور الكتابات الاستشراقية، وينبغي أن نعثر على طريقة للتعامل معها، وأن لا نجعلها محور القبول أو الرد، وإنما بتعامل معها بوصفها جزءاً من تيار كما نتعامل مع الكتابات العربية المعاصرة.

والحقيقة إني تحدثت عن نفسي كفرد، ولكن ماذا يمكن لفرد أن ينجز لا يمكن أن ينجز الكثير، فهناك ضرورة ملحّة للعمل المؤسساتي. في العمل المؤسساتي يقومون بتدريب الأجيال الجديدة من الباحثين حتى يحصل الاستمرار وتكتمل الإنجازات. وأقولها بصراحة: لقد أسسنا اتحاد المؤرخين بالقاهرة. وقد مضى على تأسيسه حوالي العشر سنوات، وأنا كنت ومازلت نائب الرئيس، وكنت متحمساً كثيراً في بداية إنشاء هذا الاتحاد، لاعتقادي بإمكان إيجاد تحول ما من هذا الأمر، ولكنني بعد ذلك يئست؛ ولذلك قاطعته منذ حوالي أربع سنوات واعتذرت. لكن هذا لا يعني عدم جدوى إنشاء مؤسسة تضم مجموعة من الباحثين من الوطن العربي يعملون على مشروع واحد ويجتمعون تحت مظلة واحدة وفق برنامج محدد ثم يخرجون بالنظرية، ويتولون التدريب والإشراف. وهذا يحتاج إلى نفقات ولكن برأيي يوجد مؤسسات أو بعض الأثرياء في الوطن العربي يستطيعون أن ينفقوا على مثل هذا العمل. وطبعاً اعتقد أن أي حكومة من حكومات الوطن العربي تستطيع أن تبتنى مثل هذا المشروع. وكنت أتمنى لو تكون جامعة الدول العربية هي الراعية لهذا العمل، لكنها تعاني مما قد يودي بها. ومع هذا فالفكرة تظل قائمة ومطروحة لعلنا نجد من يسعى لتطبيقها ودعمها.

الحياة الطيبة: عملت الجامعة العربية على ترجمة كتاب توينبي ونشره، فإلى أي مدى يمكن الاستفادة في تجربته لدراسة التاريخ وهل يمكن عده مفصلاً في دراسة التاريخ؟

الدكتور زكار: عندما كنت طالباً في إنكلترا، أصغيت **لتوينبي** في عدة مقابلات تلفزيونية، وأظن أنه في عام ١٩٦٨ نشر كتاباً بعنوان: «التجارب» وفي كتابه تنبأ بزوال ما سماه الديانات المعاصرة الرأسمالية، والماركسية، وعودة دور الديانات الكلاسيكية ويقصد بها: الإسلام واليهودية والمسيحية والبوذية، وبعض الديانات الأخرى، وقد تحققت هذه النبوءة في بعض جوانبها. لكن لا أظن أنه توقع تحققها بالصورة التي وقعت عليها. ولم يكن منجما ولكنه استقرأ الأحداث، وما كان يجري وتوقع هذا الأمر. **توينبي** في الحقيقة يشكل ظاهرة، هي ظاهرة إنسان تعامل مع التاريخ الأوروبي في البداية، ثم جاء بنظرية «التحدي والاستجابات»، وحاصل هذه النظرية أن كل حدث تاريخي فيه ما يشكل للإنسان تحدياً أو حافزاً، يستدعي ردة الفعل عليه. والتحدي طبعاً هو السبب. وكثير من الباحثين كانوا يستخفون بهذه النظرية، لكنني لاحظت أن شهرته خارج إنكلترا كانت أكثر منها في داخل إنكلترا. وطبعاً حاول **توينبي** توسعة دائرة دراساته التاريخية ليجعلها شاملة لتواريخ الشعوب الإنسانية. وتعامل ضمن هذا العمل مع التاريخ الإسلامي. ونحن المسلمين، أحياناً وهذا عامل نفسي، نطرب كثيراً بكلمة ثناء أو إطراء، أو شهادة فيها شيء من المديح ونغفل عن الباقي.

أنا قرأت ما كتبه **توينبي** عن التاريخ الإسلامي، فوجدته ضعيف جداً؛ وذلك أولاً، لأن **توينبي** لم يكن يعرف العربية، ولم يستخدم مصدراً عربياً بشكل مباشر، وإنما اعتمد على بعض الترجمات ويخيَّل لي أنه اعتمد على نتاج الدراسات الغربية الاستشراقية، وربما لم يعتمد على مصادر عربية مترجمة. ومن هنا لم يكن ما توصل إليه بالنسبة لتاريخ الإسلام مرضياً. ويخيَّل لي أن ذلك ينطبق على التاريخ الصيني، وعلى التاريخ الهندي، لكن يبقى عمله بالنسبة للتاريخ الأوروبي، محل اعتبار كبير، وإن كان بعض المؤرخين الأوروبيين لا يوافقونه في كثير من نظرياته. وهذا الاختلاف لا ينفي كونه واحداً من أكبر أعلام علم التاريخ في إنكلترا في العصر الحديث.

وطبعاً هناك في بلدان أوروبية أخرى، قبل **توينبي** أو معاصريه، برز عدد من المؤرخين عملوا على التاريخ الأوروبي، فقدموا نظريات أثارت جدلا واسعاً وما زالت حتى الآن تستحق الوقوف عندها والتأمل فيها، مثل قضية بداية العصور الوسطى. فبعضهم عندما كتب عن بداية العصور الوسطى، قال إنها تبدأ مع المسيحية، بينما يرى أحد المؤرخين **(بيرين)** وهو بلجيكي عمل في فرنسا، أن العصور الوسطى بدأت مع قيام الإسلام

وتحقيق الفتوحات الكبيرة. فنظريته هذه تعد نظرية كبيرة، لكن يبدو أن طرحه لهذه النظرية في أجواء الحرب العالمية الثانية، وكونه بلجيكي يعيش في فرنسا، أفقد هذه النظرية كثيرا من الرواج الذي يمكن أن يحققه الإعلام. وفي الحقيقة الترويج الإعلامي يصنع نجوماً، ويطمس نجوماً. وأيضاً الظهور على الشاشة البيضاء، يسبب النجومية، لكن أيضاً يسبب الإفلاس؛ لأنها تحتاج إلى نبع لا ينضب، وليس هناك إنسان يمتلك نبعاً لا ينضب.

آيات الطيبة: في المجال الإسلامي، هل يمكن اعتبار الطبري أستاذاً مؤسسا في التاريخ وسائر من لحقه يأكل من خبزه، وبخاصةً أن المصادر التي اعتمدها الطبري فقدت غالباً؟

الدكتور زكار: الطبري مصنف، صنف وجمع معلومات وأخرجها، لكنه لم يكن يتدخل في الرؤيا، ومشكلتنا مع **الطبري** وهو شيخ المؤرخين أنه أحسن النقل والتصنيف لما نقله عن الآخرين، لكنه لم يستطع تدوين مشاهداته. **فالطبري** عاش حقبة زمنية غنية بالأحداث، لكنه لم يكتب عنها شيئاً يمكن اعتماده، وأنا ذات مرة عندما اشتغلت على تاريخ القرامطة والحركة القرمطية، فوجدت أن مادة **الطبري** ليست وثائقية وفيها ثغرات كبيرة، بالرغم من المعاصرة وهذا ليس عيباً. فأنا، مثلاً، مختص بالتاريخ الإسلامي، كثيرون حاولوا أن يستدرجوني للعمل في التاريخ الحديث، تورطت قليلاً وبعد ذلك انسحبت، وقلت أنا لست مستعداً لكتابة مشاهداتي وما عاصرته. وسأستمر بالنقل، أو بالتعامل مع المواد التي وصلتنا من خلال المصادر، وهذا ما حصل مع **الطبري**. فهو جمع مواد وكان معتدلاً ومنصفاً، وعادلاً في تقديم كل الروايات.

آيات الطيبة: لفت نظري أن الطبري ينقل واقعة كربلاء بكل تفاصيلها، وما لحقها من سبي، بينما الأمر ليس كذلك عند ابن خلدون؛ فإننا نجده يشير إليها بإيجاز شديد وكأنك تشعر بأنه يريد تجاهلها لو أمكنه ذلك.

الدكتور زكار: المسألة مختلفة عند **ابن خلدون**، فهو صاحب موقف، وقد عاش في عصر غير عصر **الطبري**، فهو خريج الأندلس أيام السقوط، وخريج المؤامرات بين غرناطة ومراكش، وفاس ثم تونس. وبعد ذلك ما كان يجري في أواخر العصر المملوكي. كل ذلك جعله صاحب آراء خاصة، بينما **الطبري** رجل كان يعرض كل ما يتوفر لديه من مواد وأخبار لم يطمس ولم يلغ إنما قدمها للآخرين كما هي ليتعاملوا معها.

الحياة الطيبة: لو وقفنا قليلاً عند مصادر الطبري لوجدنا أن كثيرا من المصادر التي اعتمدها فقدت ولم يبق لها أثر، مثلا، في واقعة كربلاء ينقل الطبري عن أبي مخنف، فهو من أهم مصادره في هذا المجال، ولكن أين كتاب أبي مخنف، يدعي بعضهم أنه غير موجود، ألا يقلل هذا من قيمة مروياته؟

الدكتور زكار: ما أعرفه هو أنه تم العثور على كتاب **أبي مخنف** وطبع باسم «مقتل لأبي مخنف» وعندي نسخة منه. نعم هناك مصادر وكتب أخرى ما زالت مفقودة مثل: ما كتبه **سيف بن عمر**، و**المدائني** وعدد كبير من المؤرخين، هؤلاء مازالوا مغيبين عنا.

الحياة الطيبة: كيف يمكن الدفاع عن قيمة الطبري واعتباره شيخ المؤرخين مع تشكيك البعض ببعض مصادره من حيث الوثاقة؟

الدكتور زكار: هناك من يريد النيل من **الطبري**، وبخاصة في كتابه الذي أعتقد أنه لم يصلنا حول غدير خم، فهو قد جمع في كتاب روايات عن غدير خم في مجلدين، وحاول بعضهم التشكيك فيه على أساس مذهبي بدعوى أنه شيعي. وأنا لا أظن أنه تجاوز حدود الولاء والمحبة لآل البيت(ع). وإذا أردنا أن نأخذ رأي المتشددين من نقاد الحديث، فنحن نعرف أن الإمام **مالك** قال عن **محمد بن إسحاق** إنَّه دجّال، بينما هناك إجماع بين معظم المحدِّثين والعلماء أن **محمد بن إسحاق** أمير المؤمنين في السيّر والمناسك. وبرأيي ما كتبه **أبو مخنف** أو **سيف بن عمر**، أو ما حفظ لنا في المصادر الدينية، نافع إلى درجة كبيرة في الحصول على معرفة بالرواة. أنا أحب كتاب عيون أخبار الرضا، وأرى أنه لا يمكن إغفال هذه المواد، وأتعامل معها من منظار البحث التاريخي المنصف، والمنتمي لأمة وليس لفرقة، وبالمناسبة أنا تعاملت أيضاً مع عدد من كتب المصادر التاريخية للخوارج لاسيما الأباضية. ووجدت عندهم مادة لا يجوز إغفالها.

سيدي نحن في الحقيقة بحاجة ليس فقط لجمع كل ما كتب، وكل ما أرخه مؤرخ سواء كان شيعياً أو سنيا أو... وإنما نحن بأمس الحاجة لأن نطَّلع على المواد التي كتبت من قبل مؤرخين غير مسلمين، وأضرب مثلاً، معركة مؤتة. فالسمة الغالبة في كل المعارك أو المغازي في أيام النبي(ص) أنه كان يتحقق عامل المفاجأة، إلا في معركة مؤتة فالمسلمون فوجئوا من قبل الروم، كثير من المؤرخين المسلمين حاولوا أن يتصدوا لهذه القضية لكن لم يتوفر لديهم ما يكفي من مادة، فعدت إلى مصدر بيزنطي مهم جداً، اسمه تاريخ

ثيوفانوس، ووجدت عنده مادة أخبارية ليست موجودة في مصادر أخرى، ووجدت أنه يتحدث عن عربي من قريش كان يعمل عند **ثيودور** أخو الحاكم في سوريا آنذاك، هذا العربي كان موجوداً في الحجاز وقت تجهيز حملة مؤتة واسمه **قطبة**، نقل أخبار الحملة ووصفها للروم؛ لذلك كان الروم ينتظرون ساعة الصفر.

الحقيقة أنا علي أن أبحث عن مصادر تضاف إلى مصادرنا، ولحسن الحظ أن هناك المكتبة السريانية والمكتبة الأرمنية وإلى حدّ ما المكتبة البيزنطية، وهذا بالنسبة إلى العصور المبكرة أما بالنسبة للعصور المتأخرة لاسيما عصر الحروب الصليبية، فالمصادر غير العربية أوفى بالتفاصيل وبالمعلومات من المصادر العربية.

فالمصادر العربية تشكل فرعا واحداً، بينما هناك خمسة فروع أخرى باللغة اللاتينية، والفرنسية القديمة، والإغريقية، والسريانية، والأرمينية، وأضرب مثلاً على هذا **ابن القلانسي** هو مؤرخ عربي، كان يعيش في دمشق وكان شاهد عصر لمقتل **مودود** القائد الكبير في جامع دمشق واغتياله، فقال إنه وثب عليه بعض الباطنيين أو الحشيشيين فقتله، بينما عندي مصدر أرمني معاصر للحدث اسمه **متّى الرهاوي** يقول بكل صراحة: إنه قُتِل بمؤامرة دبّرها **تورتكين**؛ لأن **مودود** يشكل خطراً عليه. وبعد ذلك لاحظت أن السلطنة أرسلت **برسق ابن برسق** ليحارب **تورتكين**، وأن **تورتكين** تحالف مع الصليبين ضد **برسق ابن برسق**، إذن عنصر المؤامرة والاغتيال ليس بيد الحشيشيين وإنما بيد آخرين.

لذلك علينا أثناء محاولات البحث أن نعود ما أمكن إلى الكتابات السريانية والأرمينية، وهي متوفرة. وهناك الكثير من الناس يعرفون السريانية ويتقنون معها العربية، وما تزال المكتبات السريانية بسوريا والعراق غنية جداً. وأيضاً المكتبات الأرمينية وفيها كتابات كثيرة. وأضرب مثلا آخرً، يوجد مؤرخ أرمني عاش من عشرة للهجرة حتى أربعين، وهو مهم جداً بالنسبة لفتوحات الشام والجزيرة، وكتاباته موجودة ومطبوعة بالفرنسية، وأنا حاولت الحصول عليها من فرنسا وكلّفت بعض الأرمن ولكن إلى الآن لم أوفق بالحصول عليها؛ لذلك تبقى القضية أنه عندما يكون هناك مؤسسة حكومية، فإنها تكتب إلى الملحق الثقافي أو المستشار الثقافي، فيصورها لهم في فرنسا أما نحن كأفراد فقد يتعذر علينا ذلك.